فلسفة التاريخ

لجناب الفاضل مستر هارڤي پورتر

استاذ التاريخ والعقليات في المدرسة الكلية السورية

التاريخ علم عظيم الفائدة كثير الاعتبار لانهُ يبحث عن الانسان واحوالهِ على توالي الازمان . وقد قال بعض الفلاسفة ان اعظم معرفة يعرف الانسان نفسهُ بها تتوقف على تاريخهِ ولذا ترى ان هذا العلم وُضع قديمًا وان اقدم الكتب التي ابقاها لنا الاوَّلون كُتب تاريخيَّة كأنَّ اوَّل ما حمل الانسان على استنباط الكتابة رغبتهُ في تدوين اخبارهِ واخبار اجدادهِ حرصًا عليها من طوارق الحدثان وحفظًا لها من آفة النسيان ولم يزل الانسان يهتمُّ بذلك كثيرًا ويتوسَّع فيهِ حتى يومنا هذا

اما علم التاريخ الحقيقي وهو الذي يسمونهُ فلسفة التاريخ فحديث الوضع بالنسبة الى التاريخ بالاجمال ولم يبلغ من الكمال حتى الآن مبلغ اكثر العلوم وذلك لاسباب شتى عدا عن حداثة عهدهِ . من اعظمها اتساع دائرتهِ واعتمادهُ على حوادث لاتزال جارية ولن تزال ما دام الانسان موجودًا على وجه هذه البسيطة . وان قبل ما تعريف هذا العلم الواسع قلنا ان تعريفهُ تعريفًا جامعًا مانعًا يجدُ مختصر امرٌ عسرٌ وربَّما كان غير ممكن ولكنَّا نقول بوجه الاجمال انهُ خلاصة التاريخ وجوهرهُ ويسهل ادراك ماهيتهِ من اعمال النظر في غاياتهِ . هذا ويزعم الاكثرون ان غاية التاريخ سرد الحوادث مع مراعاة الصدق والاستقامة بحيث لا يزيد المؤرِّخ شيئًا على الواقع ولا ينقص منهُ شيئًا مهمًّا . فينحصر علم التاريخ في زعمهم على وصف انشاء الممالك وسقوطها وذكر اسماء ملوكها ونسبهم واهم اعمالهم ولاسيما حروبهم وشيء من اخبار من اشتهر من الخاص والعام ولا يتجاوز الى وصف عوائد الناس ولا تمدنهم ولا علومهم ولا اسباب تلك الامور ونتائجها . على ان هذا التاريخ ناقص الفائدة ولا تتم فائدتهُ الاَّ اذا قُرنت الحوادث بما يكشف لنا جوهرها وعلاقاتها واسبابها ونتائجها لنفهم معناها فهمًا واضحًا . ترى ما الفائدة من معرفة تاريخ الرومانيين منذ تأسيس ملكتهم الى سقوطها ومن الاطلاع على حوادثها المتتابعة والعلم بتقدمها ونجاحها وتأخُّرها وانحطاطها الى ان محي اسمها وعفي رسمها مع الجهل باسباب ارتقائها وتعليل انحطاطها . نعم ان في تلك المعرفة لذةً عقلية ولكن ليس فيها فائدة تذكر ولا منها نفع لنا في حياتنا الحاضرة واحوالنا الحاصلة . والواجب ان تكون الغاية العظمى من درس تاريخ امة كالرومانيين معرفة الاسباب التي ادَّت الى خيرها وافضت الى ضيرها حتى نجتني المفيد مما افادها ونجتنب المضرَّ مما اضرَّها

اما فلسفة التاريخ فغايتها اقصى من كل ذلك ودائرتها تشمل الحوادث والفوائد باسرها وموضوعها

يبحث عن جوهر الامور. فكما ان الفلسفة الطبيعية لا تقتصر على وصف الظواهر الطبيعية بل تكشف جوهرها ايضاً وكما ان كل فلسفة تبحث عن الوحدانية في الحوادث العديدة هكذا فلسفة التاريخ تبحث في تاريخ كل امة عن المعنى الجوهري الذي يشمل كل حوادث تاريخها ويفسّرها ويبيّن وحدانيتها وغايتها القصوى. ولايضاح المراد بالوحدانية في ما تقدّم نورد المثال الآتي: ان الانكليز امّة مشهورة بين امم الارض وتاريخها معروف منذ نشأت. وقد تتبّع المؤرّخون حوادث تاريخها ودقّقوا فيها ايما تدقيق وبحثوا عن اوائلها واواخرها وبسطوا اعمالها ومآثرها وبيّنوا احوال ميثاقها الاجتماعية من ابتدائها الى اليوم حتى صار بيّناً لاصحاب الفكر ان يتتبعوا آثار نموّها وتقدّمها منذ نبتت من اصل خفيّ ضعيف الى ان صارت على ما هي عليه من الظهور والعظمة والقوّة. وكل ذلك لذيذ ومفيد ولكنه يوجد ما هو اعظم منه فائدةً واسمى من معرفة سياق حوادثه المتتابعة اعتباراً اعني به معرفة جوهر تلك الحوادث وان نثبت فقل المحور الذي تدور كلها عليه او المركز الذي اذا وقفت فيه رأيتها منه مصطفّة حولك اصطفافاً كاملاً الانتظام بحيث تدرك علاقة احداها بالاخرى وتفهم الغاية الوحيدة التي تحد كلها فيها. وعندي ان هذا المحور الذي يدور عليه تاريخ الانكليز والمركز الذي نرى منه حوادث تاريخهم مرتّبة ترتيبها الصحيح هو ما اسميه بالحرية النظامية اعني به النظام الذي يمنح كل فرد من افرادهم باعظم حظٍّ من الحرية الشخصية مع الضبط التام في السياسة. والذي يؤيّد لي مذهبي هذا اني اذا جعلت الحرية النظامية مركز حوادث تاريخهم واطلقت منه عنان النظر اليها رأيتها كلها تنطبق على ما ينبغي ان يكون ويوافق بعضها بعضاً اتم الموافقة فافهم جوهرها وادرك غايتها وهي غاية سامية خليقة باعتبار ذوي الالباب. فهذا المحور الذي عليه محار الامور او المركز الذي منه نرى موقع الحوادث ونكشف علاقاتها هو المقصود بالوحدانية في التاريخ وهو مبتغى الفلسفة في كل علم

الّا ان فلسفة التاريخ لا تقتصر على الجزئي كمعرفة الجوهر في تاريخ الانكليز او تاريخ غيرهم من الامم بل تجاوزه الى الكلي فتبحث عن غاية تاريخ العالم كلهِ وعن المعنى الجوهري في ارتقاء الجنس البشري اجمع ولا يخفى ما في هذا البحث من العظمة والصعوبة لاتساع دائرته حتى اختلف العلماء فيه اختلافاً عظيماً فذهب قوم منهم الى انه لا يمكن ان يكون في تاريخ البشر وحدانية ولا ان يكون في فروعه العديدة اتحاد. على انه ان كان مذهب هولاء مبنيّاً على ان البشر كلهم لم يقصدوا غايةً واحدة عمداً في تواريخهم ولم يتواطأوا على ان يكون مآل اعمالهم الى امرٍ واحد صحيح. والاّ فان زعموا انه لا يمكن ان يكون لاعمال البشر واحوالهم مآل واحد على غير قصد منهم فغير صحيح اذ يصح لنا ان نفرض ان القدرة الالهية قد انشأت البشر كلهم لغايةٍ واحدة تدير كل امورهم اليها على غير علمٍ منهم. فيبقى على فيلسوف التاريخ ان يبحث عن كشف هذه الغاية في تواريخ العالم منذ البدء الى الآن. وهذا البحث يقتضي له تعميم دقيق ومقابلة واسعة بين الحوادث

وعقل ثاقب وادراك قويّ حتى يؤدّي الى المقصود فلا تعجب من خبط الكثيرين فيه على غير هدًى وابتعاد الباحثين منهُ حتى الآن ولاسيما لانهُ لم يزل حديثًا ولم يحصل الاتفاق على مبادئهِ

ومهما يكن من قصور فلسفة التاريخ في الكلي فقد حصّلت الفوائد الجمّة من تواريخ الممالك على حدتها لان هذه التواريخ اقلُّ من تاريخ العالم باسرهِ اتساعًا واكثر منهُ كمالاً اذ تاريخ بعض الممالك قد ختم وتاريخ بعضها قد صار في الكهولة وظهرت الجهة المتجه اليها . ومن اعظم الفوائد المشار اليها ظهور اسباب التقدُّم والتأخُّر في حياة الشعوب فصار يمكن للناس مراعاة الاوّل واجتناب الثاني . ومنها انكشاف حقيقة التمدن ووسائط نموّهِ وحفظهِ من الزوال فصار يمكن للناس ان يرجوا بقاء تمدُّن هذا العصر ودوام تقدمهِ ما دام البشر موجودين بخلاف تمدن الاولين فانهُ كثيرًا ما كان يبلغ درجة سامية في الارتفاع ثم يحطُّ وتندرس آثارهُ . ومنها ارشاد المؤرّخين الى مناهج افضل من مناهج الاولين في تصنيف تواريخهم فانهُ بعد ما كان كثيرون يروون الروايات ويوردون القصص ولا ينظرون في صحتها ولا يحققون مطابقتها للواقع ولا يبينون اسباب الحوادث ونتائجها اضحى مؤرّخو عصرنا هذا يتوخون الصدق وقام الفائدة في تصانيفهم حتى جاءت كتبهم كالابريز او الفضّة المخلّصة بالنار مرارًا . فعلى مَنْ رام التأليف في التاريخ ان يراعي مبادئ فلسفتهِ والسلام

زراعة التبغ

لا يخفى ان جبل لبنان مشهور بجودة تبغهِ ولاسيما بلاد جُبَيل وقد طلبنا من جناب مخائيل افندي ملحم ان يختار قطعة ارض من اجود اراضي تلك البلاد ويخبرنا بالتفصيل عن كيفية زرعها بحسب ما يجري عليهِ اكثر الناس خبرةً بزراعة التبغ وعن مقدار غلتها وكيفية تعليل التبغ بعد قطافهِ الى غير ذلك ممَّا يُرى في هذه النبذة فكتب لنا رسالةً في هذا الموضوع لخّصناها بما يأتي

انني ابني كلامي الآتي على قطعة ارض في قرية عين كفاع من بلاد جُبيل طولها تسعون ذراعًا وعرضها ثلاثون ذراعًا . تربتها حمراء دلعابة رطبة عسر فلحها وعمقها لا يتجاوز ثلاث اذرع ونمت ذلك صخر صلب . وجودة التبغ ليست محصورة في ما ارضهُ كذلك بل هو يجود ايضًا في الاراضي المحلولة . ويلزم للارض المذكورة في السنة اثنتا عشرة غرارة من زبل المعزى ويمكن ان تُزبَّل بزبل الجمال ايضًا . وتُزرَع بين اواخر ايّار واوائل حزيران على ان اوقات زراعة التبغ في بلاد جبيل متفاوتة قليلاً بحسب المكان والظروف . وتُحرَث في اوقات مختلفة قبل ان تُزرَع وتُقلَب الى عمق ذراعين او اكثر كل سنتين او